﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظُهور المعجزاتِ، وإنكار حاشِيةِ فرعون، ما بأَعْيُنِهم يَرَوْنَ

لمّا أتَى بالبيانِ، وأقامَ واضحَ البرهانِ، اقتضى الحالُ السُّؤالَ عمّا أبرَزوهُ مِنَ المَقالِ في جوابِهِ، فقالَ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾، فثارَت نفوسُ بطانةِ فِرعونَ وعظماءِ قومِهِ بردِّهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: السّينُ والحاءُ والرّاءُ أصولٌ ثلاثةٌ مُتباينَةٌ: أحدُها: خَدْعٌ، وشِبْهُهُ؛ أي: ما خفيَ، ولَطُفَ سببُهُ، وهو إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقِّ، وهو الخَديعةُ[2]، وكلُّ ما كانَ مِنَ الشّيطانِ فيه مَعونةٌ. وهو: الأُخَذَةُ الّتي تأخُذُ العينَ حَتَّى تَظُنَّ أنَّ الأمرَ كَما تَرى، وليسَ الأصلُ على ما تَرَى[3]. فالسِّحرُ: خِداعٌ وتخييلاتٌ، نحو ما يفعلُهُ المُشعبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لخفّةِ يدٍ، واستجلابِ مُعاونةِ الشّياطينِ بضربٍ مِنَ التّقرُّبِ إليهم[4]. وأصلُهُ التّخييلُ بما لا حقيقةَ له، ووسيلتُهُ خِداعُ الحواسِّ والقلبِ، وحدَّهُ الفخرُ الرّازيُّ في عُرفِ الشّرعِ بأنّه: المُختَصُّ بكلِّ أمرٍ يُخفَى سَبَبُهُ ويُتَخَيَّلُ على غيرِ حقيقتِهِ، ويجري مَجرَى التّمويهِ والخِداعِ[5]. وهو معنى اللّفظِ في الآيةِ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ وسيلةُ العاجزينَ عن ردِّ الحُجّةِ؛ لأنّه الأيسرُ في الاستدلالِ

قالَ الجُمهورُ والسّادةُ مِن قومِ فِرعونَ - بعدَ ما رأوا انقلابَ العصا ثُعبانًا واليدَ بيضاءَ، موافقين لقولِهِ قائلينَ مَقالتَهُ، ماضينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سحر).
(4) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).

على رأيِهِ، بعدَ ما رَجَعَ إليه رَوْعُه، واستقرَّ على عَرشِ مملَكتِهِ -: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]، قاصدينَ بهذا القولِ ذمَّ موسى، والحطَّ مِن قدرِهِ بوصفِهِ بالسِّحرِ، مع أنَّ السِّحرَ إذ ذاكَ كانَ في أعلى المَراتِبِ؛ إذ لم يُمكِنهُم مع ما ظهرَ على يدِهِ نسبةُ شيءٍ إليهِ غيرَ السّحرِ، وبالغوا في وصفِهِ ليثبتوا أنّهُ راسخٌ في علمِ السّحرِ، ماهرٌ فيه[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ إذا أرادَ هوانَ عبدٍ لا يزيدُ الحقَّ حُجّةً، إلّا ويزيدُ لذلك المُبطلِ فيه شُبهةً، فكلَّما زادَ موسى عليه السلام في إظهارِ المُعجزاتِ ازدادوا حَيْرةً في التّأويلاتِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

توافُقُ الوصْفِ بتَكرارِ الكلامِ، تصديقٌ وإذعانٌ بالطّاعةِ المُطْلَقةِ

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ استئنافٌ جرى على طريقةِ الفصلِ بوصفها عبارة محاورةٍ جاريةٍ بينَ موسى وبينَ فِرعونَ وملئِهِ[4]. وفِرعونُ كانَ مُشارِكًا لهم فيما قالوه؛ لأنّ القرآنَ حكى عن فِرعونَ في قوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الشّعراء: 34]، والجمعُ بينَهما: أنَّ فِرعونَ وهُم قالوا هذا الكلامَ، فحكى هنا قولَهم وهُناك قولَهُ. أو قالَهُ ابتداءً فتلقَّنَهُ منه الملأُ، فقالوهُ لأعقابِهِم، أو قالوهُ عنه للنّاسِ على طريقِ التّبليغِ، كما يفعَلُ الملوكُ؛ يرى الواحدُ منهُمُ الرّأيَ فيُكلِّمُ به مَن يَليهِ مِنَ الخاصّةِ، ثمّ تُبلِغُهُ الخاصّةُ العامّةَ. والدّليلُ عليه أنّهم أجابوهُ في قولِهِم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[5]، وإعادتُهُم كلامَ فِرعونَ بلفظِهِ للموافقةِ التّامّةِ، بحيث لم يكتفوا بقولِ: نَعم، بل أعادوا كلامَ فِرعونَ ليكونَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/455.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/556.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/41.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

قولُهم على تمامِ قولِهِ[1] تصديقًا، وتقريرًا لما قالَهُ[2]، وتخصيصُ الملأِ بالذّكرِ مع عُمومِ الرّسالةِ لهُم ولغيرِهِم؛ لأنَّ مَن عَداهم كالأتباعِ لَهم[3].

عِلّةُ التَّعْبيرِ باسمِ الإشارةِ، فيما تَحويه الآيةُ من عِبارةٍ:

في نِسبَتِه للسّحرِ الباطلِ، تَوهُّمُهم إبطالَ مُعْجِزتِه وتَفنِيدَها

كانَ السّاحرُ عندَهُم في ذلك الزّمنِ أعلى المَراتِبِ وأعظمَ الرِّجالِ، ولكن وصفَهُم موسى بالسّحرِ مع مُدافعتِهم له عنِ النّبوّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ[4] لقدرِهِ؛ إذ لم يُمكنهُم في ظهورِ ما ظَهَرَ على يدِهِ نسبةُ شيءٍ إليه غيرَ السِّحرِ، ورسَّخَ هذا المعنى التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ، فأكثرُ استعمالِ لفظِ (هذا) إذا كانَ مِن كلامِ الكفّارِ في التّنقُّصِ والاستغرابِ، كما قال: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 36]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان: 41]، وغيرها. فهُم يَعدِلونَ عن لفظِ اسمِ ذلك الشّيءِ إلى لفظِ الإشارةِ تنقُّصًا وذَمًّا.

بَلاغةُ جماعِ المؤكِّداتِ، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تأكيدُ الوصفِ بالسِّحرِ، دليلٌ على العِنادِ والنُّكرِ

أكَّدوا نِسبةَ السِّحرِ إليه بدخولِ (إنَّ) و(اللّام)[5]، وبلفظِ اسمِ الفاعلِ الدّالِّ على ثبوتِ السِّحرِ عندَهُم في الفاعلِ، ورسوخِهِ فيه، وعزَّزَ هذا المعنى وصفَهُ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل الّتي تدُلُّ على الثّبوتِ، واللّزومِ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ صيغةَ مُبالغةٍ بمعنى: (كثيرٌ)، أو صفةً مُشبَهةً بمعنى: (دائمٌ)، والمعنى على الاثنين أنّهم يَعنونَ أنّهُ عالمٌ بالسِّحرِ ماهرٌ فيه، قد أخذَ عيونَ النّاسِ بخُدعةٍ، وأظهرَ لهم ما لا عهدَ لهم بمثلِهِ مِن أعمالِ السَّحرةِ[6]. وبالَغوا في وصفِهِ بأن قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغٌ الغايةَ في علمِ السِّحرِ وخُدَعِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/124.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/262.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/437.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

وخيالاتِهِ وفنونِهِ[1]؛ لينفّسوا عنهُ بعضَ ما لحقَهُ مِنَ الكربِ[2]، ولمّا كانَ ذلكَ خارجًا عمّا ألفَهُ السَّحرَةُ قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغٌ في علمِهِ إلى حدٍّ عظيمٍ.

مُتشابِهُ اللّفْظِ بينَ آيةِ الأعراف (109)، وآيةِ الشّعراء (34):

اختيارُ التّركيبِ في كلِّ آيةٍ، يُشيرُ إلى تناسُبِ سِياقِ القولِ والجوابِ

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، وفي الشّعراءِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشّعراء: 34]؛ لأنّهُ لمّا تقدَّمَ في سورةِ الأعرافِ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وقعَ ذكرُ الملأِ مَبعوثًا إليهم مع فِرعونَ؛ فناسبَ ذلك أنْ يُذْكَروا في الجوابِ حتّى يكون في قوّةِ أن لو قيلَ: (بُعِثَ إليهم وخوطِبوا؛ فقالوا)، ولم يكنْ ليناسبَ (بُعِثَ إليهم وخوطبوا؛ فقالَ فِرعونُ)، كما أنّ المُقابلةَ في هذه الآيةِ وقعَت بينَ موسى مع فِرعونَ وقومِهِ، وفي الشّعراءِ وقعَت بينَ موسى ﷺ وفِرعونَ فقط[3].

ومِنَ المُتشابِهِ أيضًا ذكرُ اسمِ (فرعون) هنا، وإضمارُهُ في الشّعراء وطه. والجوابُ: أنَّ الملأَ في السّورتين كانوا المُتولّينَ للجريمةِ مِن تكذيبِ الآيةِ، وردِّ ما جاءَ به موسى ﷺ، ولم يجرِ ذِكرٌ لفِرعونَ، ولا فيما تَلا الآيةَ في السّورتين، ويتلوها مِنَ المحاورةِ، والمُراجعةِ بينَ المَلإِ وأتباعِهم إلى قولِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فلمّا لم يقعْ إفصاحٌ باسمِهِ في هذه الجملةِ مع أنّهُ هو القائلُ على كلِّ حالٍ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إخبارًا أو استفهامًا إنكاريًّا ناسبَ هذا أن يُفصِحَ باسمِهِ؛ ليرتفعَ الالتباسُ، وهو إمكانُ أن يكونَ القائلُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ غيرَ فِرعونَ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/15.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/214 - 215، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/219.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(السِّحرُ)، و(الشَّعبذةُ)، و(التّمويهُ):

السِّخرُ اسمٌ لمَا دَقَّ مِنَ الحِيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وهو منَ المُوبِقاتِ

السِّحرُ هو التّمويهُ، وتخيّلُ الشّيءِ بخلافِ حقيقتِهِ مع إرادةِ تجوّزِهِ على مَن يقصدُهُ بهِ. وسواء كان ذلك في سُرعةٍ، أو بُطءٍ. وفي القرآن ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: 66]. وأمّا الشّعبذةُ فما يكونُ مِن ذلك في سرعةٍ، فكلُّ شعبذةٍ سحرٌ، وليسَ كلُّ سحرٍ شعبذةً.

أمّا التّمويهُ فهو تغطيةُ الصّوابِ، وتصويرُ الخطأ صورته. وأصلُه طلاءُ الحديدِ، والصُّفرِ (النّحاس الأصفر) بالذّهبِ، والفضّةِ؛ ليوهِمَ أنّه ذهبٌ، وفضّةٌ. ويكونُ التّمويهُ في الكلامِ وغيرِهِ، تقولُ: كلامٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم تُبيّنْ حقائقَهُ، وحَلْيٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم يُعيَّنْ جنسُهُ. والسِّحرُ اسمٌ لمّا دقَّ مِنَ الحيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وقالَ بعضُهُم: التّمويهُ اسمٌ لكلِّ حيلةٍ لا تأثيرَ لها، ولا يُقالُ تمويهٌ إلّا وقد عُرِفَ معناهُ، والمَقصدُ منه. ويُقالُ: سِحرٌ، وإن لم يُعرَفِ المَقصدُ منهُ[1]، ومِن هنا فالسِّحرُ هو أنسبُ لسياقِ الآيةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257 - 258.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»